المحاضرة 03: القصيدة العربية في عصر النهضة

شهدت القصيدة العربية تطوّرًا واضحًا في أشكالها، في عصر النهضة العربية (القرن 19 وبداية القرن 20)، بحيث لم تبق محصورة في النموذج التقليدي فقط، بل ظهرت اتجاهات جديدة نتيجة الاحتكاك بالثقافة الغربية، وبالتالي التأثّر بها خاصة المذهب الرومنسي وما يحمله من سمات رسمت ملامح القصيدة العربية الجديدة، بظهور الوحدة العضوية، واللغة البسيطة، واللجوء إلى الطبيعة في أشعارهم هروبا منهم من الواقع المرير، والتي عدّت بمثابة ملاذ لهم للتعبير عن احاسيسهم ومشاعرهم من حزن وأمل وألم واغتراب، ويمكن تلخيص أشكال القصيدة العربية في عصر النهضة فيما يلي:

1. القصيدة التقليدية/الإحيائية (المحاولات الأولى للتجديد)

بقيت مهيمنة في بداية النهضة، محافظة على:

-وحدة الوزن (البحر الشعري)، ووحدة القافية ، ونظام الشطرين (صدر وعجز).

-الوحدة العضوية واللغة البسيطة الموحية.

-توظيف عناصر الطبيعة المختلفة، وتصويرها.

من أبرز روادها:

محمود سامي البارودي

أحمد شوقي

حافظ إبراهيم

هدفها الأساس كان إعادة بعث، وإحياء التراث الشعري القديم ومحاكاة فحول الشعراء.

2. القصيدة ذات النفس الإصلاحي:

حافظت على الشكل التقليدي، لكنها جدّدت في المضمون.

تناولت قضايا: الإصلاح الاجتماعي، والحرية، ومقاومة الاستعمار

من شعرائها:

عبد الرحمن الكواكبي (من حيث الفكر)/ معروف الرصافي

التغيير هنا كان فكريًا أكثر من كونه شكليًا.

3. الشعر الحر/ قصيدة التفعيلة

–تحرّر من القافية الواحدة لكنه حافظ على الوزن.

–تأثر بالأدب الأوروبي.

–أقل انتشارًا من العمودي، لكنه مهد للتجديد لاحقًا.

4. الشعر المنثور (النثر الشعري)

تخلّى عن الوزن والقافية.

يعتمد على:

الصور البلاغية

الإيقاع الداخلي

تأثر بالآداب الغربية (خاصة الفرنسية).

من رواده:

جبران خليل جبران

ميخائيل نعيمة

كان خطوة جريئة نحو الحداثة الشعرية.

5. الشعر المهجري

ظهر عند شعراء العرب في المهجر (خاصة في الأمريكيتين).

يجمع بين:

التجديد في الشكل

العمق الإنساني والفلسفي

من أبرز شعرائه:

إيليا أبو ماضي

جبران خليل جبران

تميّز بالتحرر من القيود الكلاسيكية والانفتاح على الذات والطبيعة.

وفي الأخير يمكن القول بإن عصر النهضة كان مرحلة انتقالية:

بدأ بـ إحياء القديم (القصيدة العمودية)

ثم انتقل إلى تجديد المضمون

وانتهى بمحاولات كسر الشكل التقليدي تمهيدًا لظهور الشعر الحر لاحقًا

2- تطور شكل النص الشعري في المدارس الرومانسية العربية (خليل مطران)

يعدّ خليل مطران أوّل الممهدين لحركة الشعر التجديدية في الوطن العربي، بفضل احتكاكه بالغرب، واتقانه اللّغة الأجنبيّة خاصة الفرنسية، فهو الذي سافر إلى فرنسا ودرس آدابها، مما وجب عليه "أن يجدّد تجديدا جذريا فيبتعد عن شعر المناسبات الذي أفسد شعره وهبط به عن المرتبة التي كان يجب أن يتبوأها" سعيا منه إلى ترك القديم والسير نحو الجديد.

لقد كان مطران شاعرا إنسانيا، وشاعرا نبيلا شاعر ذا رسالة، وهو الذي قال في ظاهرة التجديد "أردت التجديد في الشعر، وبذلت فيه ما بذلت من جهد...فجاريت العتيق في الصورة بقدر ما وسعه جهدي وتضلعي من الأصول واطّلاعي على مخلفات الفصحاء، وتحرّرت منه، وأنا في الظاهر أتابعه بنوع خاص من الوصف والتصوير ومتابعة الفرص. وبهذه الطريقة مهّدت للجديد قبولا في دوائر كانت ضيّقة، ثم أخذت تتّسع إلى ما وراء ظنّي وتستمر في الاتساع بحكم العصر وحاجاته، والعلم ومقتضياته، والفنّ ومستحدثاته" وهذا دليل على ريادته لحركة التجديد جاء على لسانه، قوبلت بالرفض والامتعاض في

البدايات من قبل بعض المتعنّتين كما أسماهم، هؤلاء الذين وصفوا شعره بأنّه "عصريّ وهموا بالابتسام، فيا هؤلاء! نعم هذا شعر عصريّ وله على سابق الشعر مزية زمانه على سالف الدهر" نعم فهو كذلك، فقد أراد أن يكون شعره مرآة عاكسة لعصره لا لعصر سابقيه فيقول: "أريد أن يكون شعرنا مرآة لعصرنا في مختلف أنواع رقيه، أريد كما تغيّر كل شيء في الدنيا، أن يتغيّر شعرنا، مع بقائه شرقيا..عربيا..مصريا.." وهنا يتبدّى وقوف الشاعر بين التقليد/ المحاكاة والتجديد. وفي سؤاله عن هذه القضّية يجيب: "لم يقولوا عنّي أنّي قديم، والواقع أنّي أجرأ من حافظ وشوقي على التجديد، لكنّي مع ذلك لم أجدّد شيئا عظيما، والواقع أنّ أسلوبنا قديم يدخله شيء قليل من المصطلحات والأفكار الجديدة.."، وهذا اعتراف صريح على أنّه أدرك مفهوم التجديد بأنّه الخلقة والابداع في المواضيع من أوله لآخره، ولعلّ مقولة إبراهيم ناجي في هذا الصدد "كلّنا أصابتنا الحمى المطرانية" دليل على ذلك، فبالرغم من أنّ بدايته الشعرية كانت محافظة، والتي بدت واضحة في قصائده سواء من ناحية الشكل أو الأغراض، وبالتالي يمكن القول بانّه "لم يكن رومنطيقيا خالصا، ولكنّه مهّد للتيار الرومنطيقي بمثاليته الهادفة إلى تثوير اجتماعي إنساني، بتقويته لعنصر الخيال في الشعر، وباهتمامه بالطبيعة، وبدعوته المبكرة إلى التجديد والتجريب"، ويبقى خليل مطران صاحب الإرهاصات الأوليّة للتجديد التي اصطبغت بملامح التقليد ومحاكاة القدامى.

كان مطران من أطيب الناس، وصاحب خلق ودود، مخلص لأصدقائه، محبّا للخير والعمل الصالح، وقد صحّ قول الشاعر فيه:

كأنّك من كلّ القلوب مركّبٌ **** فانت إلى كلّ الأنام حبيبُ

وهو الذي عاصر "مصر نصف قرن ونيفا، وشهد أقسى حقبة من تاريخها الحديث فتألم لألمها، وآسى جروحها، وأورى زناد شعره لاستفزاز الهمم، وبعث النشاط والرجاء في الصدور، فتراه مغردا في أفراحها وأعيادها باكيا نادبا لرجالاتها مدافعا عن حقها".

أصدر المجلة المصرية عام 1900م، وهي نصف شهرية، ولكن ما لبث أن ودّع الصّحافة سنة 1904م، ومن أسباب ذلك ما صرّح به في مقال نشره في الهلال جاء فيه ما يأتي: "وذلت مساء رجّح اليّ "الجابي" من جولته. وأبلغني أن صديقا لي ممن كنت أعاشرهم معاشرة متصلة استلهمه في أداء ما عليه، ولم يكن ذلك للمرة الأولى، ويظهر ان الجابي ألح عليه، باعتبار ما يعرفه من الصلة المحكمة بيننا، فالتفت إليه الصديق، وجابهه بقوله: "أهو ثمن عيش؟" فلما سمعت هذه العبارة، خيل اليّ، أن كل من أرسل إليه جريدتي، وإن تلطف في الظاهر، يحسبني متطفلا عليه، فيما أتقاضاه منه، ولا يقدّر تلقاء ذلك، ما يُبذل

من جهد في التحرير وفي نفقات الطبع والبريد، وما إلى ذلك من أعمال تستنفذ مجهودا ووقتا ومالا"، لينصرف إلى عالم التجارة، ربح أول الأمر، فضارب ثروته فخسرها عام 1912م، فكانت بمثابة صدمة له، أثّرت في نفسيته وانعكس ذلك على ادبه، ولعلّ قصيدة "**المساء**" أظهر ما يكون هذا الأثر فيها:

وعليه يمكن تلخيص معالم التجديد عند خليل مطران في النقاط الآتية:

المواضيع/ الخيال/ الاتجاه الرومنسي/ الشعر القصصي/ نظرة جديدة إلى الطبيعة/ وحدة القصيدة/ الشعر التمثيلي للمآسي/ الشعر الإنساني/ صك تعابير شعرية جديدة.

المراجع:

-محمد مصطفى هدارة، دراسات في الأدب العربي الحديث.

-خليل مطران، الأعمال الشعرية الكاملة، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، ط1، الكويت، 2010.

-ميشال جحا، خليل مطران باكورة التجديد في الشعر العربي الحديث، دار المسيرة، ط1، بيروت-لبنان، 1981.